من مصادر السيرة النبوية
كتب الشمائل النبوية

بقلم الاستاذ هاني السباعي
مدير مركز المقريزي للدراسات التاريخية

قبل أن أشرع في الحـديث عن كتب الشـمائل النبوية أود أن أبين الطريق الـذي نسـلكه لمناقشة هـذا المصـدر، وسيكون عبر النقاط التالية:

أولاً: المقصود بكتب الشمائل.
ثانياً: نبذة عن أول من ألف في الشمائل مع عرض لعينة من هذه الكتب.
ثالثاً: صفوة القول.

أولاً: المقصود بكتب الشمائل:

كتب الشمائل هي التي تعنى بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وعاداته وآدابه وفضائله وسلوكه الخاص والعــام مع أزواجه وأهل بيته ومع أصحابه رضوان الله عليهم.

ونسـتطيع أن نجد هـذه الشـمائل النبوية مبثوثة في كتب أهل الحديث كالبخاري (ت256 هـ) الذي ذكر في صحيحه كتاب الأدب وكتاب الإستئذان، وكتاب اللباس.

ونجد هـذه الشـمائل في صـحيح مسـلم (ت261هــ) في كتاب البر والصلة والآداب وكتاب فضائل النبي صــلى الله عليه وسلم وكتاب اللباس والزينة وكتاب الزهد والرقائق.
كما نجدها في سنن الترمذي (ت 279 هـ) في أبواب البر والصلة وأبواب الإستئذان.
ومن أراد المزيد فليرجع إلى سنن ابن ماجه (ت275 هــ) في كتاب الأدب وكتاب الزهد.. إلخ.

ثانياً: نبـذة أول من ألف في الشـمائل مع عـرض لعينة من هذه الكتب:

يعتـبر أبو البخـتري وهب بن منبه (ت200 هــ) أقـدم من أفــرد كتابــاً مسـتقلاً في شـمائل النـبي صـلى الله عليه وسلم حيث سماه (صفة النبي صلى الله عليه وسـلم) ثم الحافظ أبو الحسن علي بن محمد المـدائني (ت270 هــ) في كتابه (صفة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم)..

لكن أشـهر كتـاب ألف في شـمائل النـبي صـلى الله عليه وســلم وحمل نفس الإسم هو كتــاب (الشــمائل النبوية والخصائص المصطفوية) للحافظ الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن ســورة الترمــذي (ت 279 هــ). وكتــاب (الشـمائل لمحمد بن المسـتغفري (ت 432 هــ) وهنـاك كتب ذكرها الحافظ السـخاوي في كتابه الإعلام والتـوبيخ ككتــاب الأخلاق النبوية لإسـماعيل القاضي المــالكي (ت 282 هـ).

واستمر التأليف في هـذا الفن حـتى جاءنا كتـاب (شـمائل الرسول) للحافظ ابن كثير (ت 774هــ) وهو مطبـوع الآن بتحقيق طه عبد الرءوف سعد.

ونظــراً لأن كتــاب الترمــذي من أقــدم الكتب المطبوعة والمتـوافرة في المكتبـات الآن سـنلقي الضـوء على هـذا الكتاب لأهميته ولأوليته كأنموذج من نماذج كتب الشـمائل النبوية.

أقــول: لقد اهتم الشــراح والعلمــاء قــديما وحــديثاً بهــذا الكتــاب منهم من علق وشــرح وأفــاض ومنهم اختصــره اختصاراً غير مخل.

فمن المراجع الــتي شــرحت كتــاب الشــمائل للترمذي:

1- شرح العلامة عصـام الـدين الإسـفراييني الشافعي: ذكره العلامة المناوي في مقدمة شرحه على الشــمائل فقــال عنــه: (فــأتى بما لم يســبق إليه كشف النقـاب على أسـرار الكتـاب ولكنه أكـثر من الإحتمـالات العقلية في هــذا الفن الــذي هو من الفنــون النقلية على ماهو عليه من عدم إلمامه بالأحكـام الفرعيـة، وربما أرود

من المبــاحث ما لا تجـول فيه الأفهـام حـتى عد عليه من السقطات والأوهام). أ هـ

2- شــرح الشــمائل لابن حجر الهيثمي: نزيل مكة، وعنه قال الشيخ المناوي: (فأطال وأطاب ولكن بعد الإنتهاب من ذلك الكتاب أزال رونق المتن باختصاره على مــازعم أنه المهم من البــاب مع ما هو عليه من الشــغف بــالتعقب بما ليس بكبــير أمر تــارة، وأخــرى من محض التعصب). أ هـ

3- شرح الشمائل للمناوي: وهو شرح مختصـر، غـير أنك تجد في بعض مواضع الكتـاب إطنابـاً لا يتناسب ومنهج المؤلف.

4- جمع الوسائل في شرح الشمائل: للشــيخ علي بن سـلطان محمد القـاري، وهو شـرح مطـول أكـثر فيه شـارحه من عــرض المســائل الفقهية وتكرارها غــير ضرورة، حتى إن القـارئ ليجد صـعوبة في الحصـول على صورة واضحة للنـبي صـلى الله عليه وسـلم، والله تعـالى أعلم.

5- شرح الشمائل للبيجوري ([1]).

أقول: هناك فريق من المعاصرين الذين قـاموا باختصـار وتحقيق كتاب الشمائل للترمذي مثل الأسـتاذ عـزت عبيد الدعاس. وفي سنة 1950 طبع في مصر كتاباً (المختصر في الشـمائل) للأسـتاذ محمـود سامي. وحـديثاً اختصـره وحققه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

وهنـاك نسـخة حديثة أيضـاً بعنـوان (الشـمائل المحمديـة) للترمـــذي وهو نفس الكتـــاب نشر كـــاملاً بتحقيق أبي الفـــوارس أحمد فريد المزيـــدي طبعة مكتبة التوفيقية بالقاهرة سنة 1418هــ وقد جمع الترمـذي (397) حـديثاً في شمائل النـبي صـلى الله عليه وسـلم وقسـمها على (56) باباً.

بــدأ كتابه ببــاب (ما جــاء في خلق النــبي صــلى الله عليه وسلم) وشمل أربعة عشر حـديثا؛ يصف النـبي صـلى الله

---

[1] أوصاف النبي للإمام الترمـذي/تحقيق سـميح عبـاس/دار الجيل/ بيروت/ ص12

عليه وسلم؛ طوله، لون بشرته، وجهه شعره عليه الصـلاة والسلام.

نختار أنموذجاً من ذلك وهو أول حـديث اسـتهل به كتابـه: فقد سـاق الترمـذي بسـنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قـال: "كـان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ليس بالطويل البـائن، ولا بالقصـير، ولا بـالأبيض الأمهـق، ولا بـالآدم، ولا بالجعد القطـط، ولا بالسـبط، بعثه الله على رأس أربعين سـنة، فأقـام بمكة عشر سـنين، وبالمدينة عشر سـنين، وتوفـاه الله على رأس سـتين سـنة، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء" ([2]).

وفي باب (ما جاء في فراش النبي صلى الله عليه وسلم) ساق الترمذي بسنده عن هشـام بن عـروة عن أبيـه، عن عائشة رضي الله عنها قـالت: "إنما كـان فـراش رسـول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه من أدم، حشوه ليف" ([3]).

وفي بـاب (ما جـاء في خلق رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم) حيث أنس رضي الله عنـه: "خـدمت رسـول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ قـط، وما قال لشئ صنعتُهُ لم صنعتَهُ، ولا لشئ تركتُه لم تركتَهُ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن النـاس خُلقاً، ولا مسستُ خزاً ولا حريـراً ولا شـيئاً كـان ألين من كفِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممتُ مسـكاً قطُّ، ولا عطراً كان أطيبَ من عَرَق رسول الله صلى الله عليه وسلم" ([4]).

ويفتح لنا الترمذي بابـاً آخر وهو (بـاب ما جـاء في أسـماء رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم) ويسـوق بسـنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قـال: قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: "إنّ لي أسـماءَ؛ أنا محمـدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفـر، وأنا الحاشر الـذي يحشر النـاس على قـدمي، وأنا العـاقب، والعـاقب الذي ليس بعده نبيٌّ" ([5]).

---

[2] الشمائل المحمدية/ الترمذي/ تحقيق أبي الفوارس أحمد فريد المزيدي/التوفيقية/ القاهرة/ ص15

[3] الشمائل/ ص225

[4] الشمائل/ ص237

[5] الشمائل/ ص251

وفي بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما جاء في عيش رسول الله صلى الله عليه وسلم) حديث سماك بن حرب قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: "ألستم في طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيتُ نبيَّكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدَّقل ما يملأ بطنه" وحديث عائشة رضي الله عنها: "كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمرُ والماءُ" ([6]).

ثم ندخل باب فراق الحبيب صلى الله عليه وسلم (باب ما جاء في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ساق الترمذي بسنده إلى سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "آخرُ نظرة نظرتُها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، كشف الستارة يوم الإثنين، فنظرت إلى وجهه كأنه ورقةُ مُصحف، والناس خلف أبي بكر، فأشار إلى الناس أن اثبتوا، وأبو بكر يؤمهم، وألقى السَّجْفَ، وتوفي من آخر ذلك اليوم" ([7]).

ويختم الترمذي كتابه بأثر ساقه عن عبد الله بن المبارك قال: "إذا ابتُليتَ بالقضاء فعليك بالأثر" ([8]).

ثم يأتي إلى الحديث رقم (397)ـ وهو آخر حديث في كتاب الشمائل: عن ابن سيرين قال: "هذا الحديثُ دينٌ، فانظروا عمّن تأخذون دينكم" ([9]).

وفي تعليق على هذين الأثرين يقول الأستاذ سميح عباس: "هذا الأثران أخرجهما الترمذي ليختم بهما الكتاب وهذا شبيه بما فعل البخاري في صحيحه إذ ابتداه بحديث إنما الإعمال بالنيات. والترمذي أراد أن ينبه القارئ إلى أن يتمسك بالأثر وأصحابه فلا يأخذ العلم أو الحديث إلا مسنداً، كما أن عليه أن يدقق في رجال الإسناد، فلا يأخذ إلا عن ثقة حافظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم ويترك الضعفاء والمتروكين والكذابين، لأنها تفسد عليه دينه، وقد أخرج الحاكم في معرفة علوم الحديث عن أحمد بن سنان القطان قال: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو

---

[6] الشمائل/ ص253
[7] الشمائل/ ص263
[8] الشمائل/ ص280
[9] الشمائل/ ص281

يبغض أهل الحديث. وأخرج أيضاً عن ابن المبارك يقول: الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء. قال أبو عبد الله الحاكم: فلولا الإسناد وطلب هذه الطائفة له وكثرة موظبتهم على حفظه لدرس منار الإسلام ولتمكن أهل الإلحاد والبدع فيه بوضع الأحاديث وقلب الأسانيد، فإن الأخبارإذا تعرت عن وجود الأسانيد فيها كانت بُتْراً. أ هـ" ([10]).

أقول: هذا سر هجوم أهل الزندقة والعلمنة وبعض المتميعيين من أصحاب العمائم على أهل الحديث واتهامهم بالجمود وعدم الفهم واهتمامهم بابن الراوندي والسهروردي والغزالي والرازي وأبي حيان والفارابي والكندي وابن سينا وغيرهم على حساب أهل الإسناد والرواية بغية التشويش على القارئ وغض الطرف عن أهل الحديث، لأنك بكل بساطة تجد أحدهم يؤلف كتاباً ضخماً يزعم أنه قدم مشروعاً إسلامياً حضارياً!!

وبعد اطلاعك على هذا الكتاب الذي نال إعجاب ما يسمى باليسار الإسلامي وأهل التنوير تجد أن الرجل حاطب ليل! جمع الغث والسمين.. بل إنه بنى مشروعه على أحاديث مكذوبة وتأصيلات واهية، لذلك لا عجب أن يهاجم هؤلاء أهل الحديث والإسناد لأنه باستطاعة رجل من أهل الحديث والإسناد أن ينسف كتاباً كاملاً بمجرد الإطلاع عليه، وهذا من حفظ الله لهذا الدين العظيم.

إذن كتاب الشمائل صورة دقيقة لشمائل الرسول صلى الله عليه وسلم، فخلال تطواف المرء في كتاب الترمذي نستطيع أن نرى صورة تقريبية لهيئة الرسول صلى اله عليه وسلم وصفاته الخلقية والخلقية، نرى كيف كان يعيش نبينا وكيف كان يأكل ويشرب وينام وكيف يضحك ويمزح، وكيف يمشي في الأسواق ويتعامل مع الناس جميعاً ضعيفهم وقويهم.

أقول: هذا الكتاب نافع لكل باحث في السيرة النبوية ومصادرها حيث يسد ثغرة كبيرة في الجوانب التفصيلية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجدها الباحث في كتاب آخر بهذا الجمع والتفصيل إذ أن معظم كتب السيرة تركز على غزوات وحروب الرسول صلى الله عليه وسلم وتتكلم عن هذه الشمائل على سبيل الإيجاز.

---

[10] أوصاف النبي /تحقيق سميح عباس/ ص323

ونعرض أنموذجـاً آخر لكتـاب جليل الفائـدة (أخلاق النـبي صـــلى الله عليه وســـلم) للحافظ أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني المعروف بأبي الشـيخ المتوفى (369 هـ) حيث جمع في كتابه شـمائل الرسـول صلى الله عليه وسلم على شاكلة كتاب الترمذي.

والكتـاب ضم أحـاديث نـادرة لا توجد في مرجع آخـر. وهو مطبوع ومتوافر في المكتبات.

واستهل الحافظ الأصـبهاني كتابه بقوله في المقدمـة: "ما ذكر من حسن خلق رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، وكرمـه، وكثرة احتمالـه، وشـدة حيائـه، وعفـوه، وجـوده، وسـخائه، وشـجاعته، وتواضـعه، وصـبره على المكـروه، وإغضــائه، وإعراضه عما كرهــه، ورفقه بأمتــه، ووكظمه الغيظ، وحلمه، وكثرة تبسمه، وسروره، ومزاحـه، وبكائـه، وحزنه، ومنطقه، وألفاظه، وقوله عند قيامه من مجلســه، ومشـــيه، والتفاتـــه، وذكر محبته الطيب، وتطيبـــه، وذكر قميصه، وجبته، وشكره ربه عند لباسه" ([11]).

وممن سار على هـذا الـدرب واسـتفاد من كتب الأقـدمين الحافظ جلال الـدين السـيوطي المتـوفى 911 هـــ حيث جمع طائفة كبيرة من شمائل النبي صلى الله عليه وسلم وضمها كتابه (كفاية الطالب اللبيب في خصـائص الحـبيب المعروف بـ الخصائص الكبرى) سـنلقى الضـوء على هـذا الكتاب في معـرض حـديثنا عن كتب الـدلائل كمصـدر من مصادر السيرة النبوية إن شاء الله.

وهناك كتاب مـاتع جـامع تكلم في هـذا الشـأن وهو كتـاب (الوفا بأحوال المصطفى) للعلامة الحافظ أبي الفـرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجـوزي المتـوفى 597 هـ.

والكتاب يعد أنموذجـاً من نمـاذج تطـور التـأليف في كتب السيرة النبوية.

نحاول أن نقلب صفحات هذا الكتاب لنرى ما جاء فيه من شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم: .

---

11 أخلاق النـــبي/ الحافظ الأصـــبهاني/ تحقيق د. الســـيد الجميلي/ دار الكتاب العربي/بيروت/ ص19

نختـار ما ذكـره ابن الجـوزي في مقدمته من الغـرض من تأليف كتاب الوفا: "وإني رأيت خلقاً من أئمتنا لا يحيطون علمـاً بحقيقة فضـيلته، فـأحببت أن أجمع كتابـاً أشـير فيه إلى مرتبتـه، وأشـرح حاله من بدايته إلىنهايتـه، وأدرج في ذلك الأدلة على صحة رسـالته، وتقدمه على جميع الأنبيـاء في رتبتـــه، فـــإذا انتهى الأمر إلى مدفنه في تربته ذكرته فضل الصـلاة عليه وعـرض أعمـال أمتـه، زكيفية بعثتـه، وموقع شـفاعته، وأخـبرت بقربه من الخـالق يـوم القيامة ومنزلتـــه. ولا أخلط الأحـــاديث خوفـــاً على الســـامع من ملالتـــه، ولا أخلط الصــحيح بالكــذب كما يفعل من يقصد تكثير روايته" ([12]).

وخلال تجوالنا في الكتــاب نجد أن أبــواب الكتــاب زادت على خمسـمائة بـاب تمامـاً كما ذكر في المقدمـة؛ فتحت عنوان (أبواب صفات جسده صـلى الله عليه وسـلم) ذكر ثلاثين باباً في صفى هيئة الرسول صلى الله عليه وسـلم؛ حيث بدأها بباب (في صفة رأسه صـلى الله عليه وسـلم) مروراً بصفة لحيته وساقيه واعتـدال خلقه وطوله وانتهـاء بذكر صـفة عرقه وذكر صـفة خـاتم النبـوة الـذي بجسـده صلى الله عليه وسلم.

ثم يأخذنا ابن الجوزي إلى (أبـواب صـفاته المعنوية صـلى الله عليه وسلم) وقد خصها بأحد عشر بابـاً. بـدأها بحسن خلق الرســول صــلى الله عليه وســلم مــروراً بشــجاعته وانتهاءً بذكر مزاحه صلى الله عليه وسلم.

ويفتح لنا ابن الجوزي أبواب زهده صــلى الله عليه وســلم وأبواب تعبده وأبواب صلاته وأبواب حجته وعمرته وأبواب خوفه وتضــرعه وأبــواب دعائه وأبــواب آلات بيته في ذكر سريره وذكر حصيره وفراشه صلى الله عليه وسلم.

ثم ندخل على أبواب لباسه صلى الله عليه وسلم وخصــها بخمسة عشر حديثاً؛ بدأها بذكر قميصه وانتهـاء بـذكر نعله صلى الله عليه وسلم.

ولم ينس ابن الجــوزي أن يــدخلنا إلى أبــواب ذكر مراكبه صلى الله عليه وسلم وأبواب أكله ومأكولاته وأبواب زينته

12 الوفا بـــأحوال المصـــطفى/ ابن الجـــوزي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا/ص1

وأبــواب شــربه ومشــروباته وأبــواب طبه وأبــواب سـفره وأبواب آلات حربه صلى الله عليه وسلم.

ويصل بنا ابن الجـوزي إلى أبـواب غزواته صـلى الله عليه وسلم وخصها بثلاثين بابـاً ثم ينتهي إلى آخر الأبـواب وهي أبـواب مرضه ووفاته صـلى الله عليه وسـلم إلى أن ختم كتابه الوفا بـأبواب بعثه وحشـره وما يجـري له صـلى الله عليه وسلم وخصها باثني عشر حديثاً.

فالكتــاب بحق موســوعة في الســيرة النبوية والشــمائل المحمدية ولا غنى لبـاحث في مصـادر السـيرة النبوية عن مثل هذا الكتاب الماتع النافع وهو بحق جـامع في السـيرة النبوية.

صفوة القول :

بعد هــذا التطــواف الســريع في بعض النمــاذج من كتب الشمائل النبوية.

أقــول: لا شك أن البــاحث في مصــادر الســيرة النبوية بحاجة إلى الإطلاع على كتب الشـــمائل النبوية لأنها تهتم بجوانب نادرة في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا يجدها في كتب السير والمغـازي أو حـتى كتب الصـحاح والســنن إلا مفرقة ومبثوثة في أبــواب متنوعة من هــذه الكتب الكثيرة.

كما أود أن أشــــير إلى أن هـــــذه الكتب في حاجة إلى تحقيقات جادة لتمييز الصـحيح من السـقيم وخاصة النسخ القديمة والمخطوطات التي في حاجة إلى طبعها ونشرها منقحة ومحققة رغم أن هنــــاك كتبــــاً قد حققت فعلاً ومتـــوافرة الآن في المكتبـــات لكنه نـــزر يســـير وجهد مشـكور؛ فنحن في حاجة إلى بـذل مجهـود أكـبر لإخـراج هـــذه الكنـــوز من كتب الشـــمائل النبوية مع ما يناسب صاحب الشمائل صلى الله عليه وسلم.

والله الموفق